

المحاضرة 08: هندسة البناء الروائي.

ينطوي البناء الروائي على عناصر متميزة، تعد هي المقومات الفنية الأساسية التي يقوم عليها، وإن توافرت في كل الأشكال القصصية القديمة والحديثة، فإن لها طبيعتها الخاصة التي تميزها وتجعلها منفردة وتمثل أساسا فيما يأتي:

1- الحدث الروائي: الأحداث في الرواية لها طابع فني خاص وتشكيل متميز، فهي ليست أحداثا متجاوزة متراكمة دون أية علاقة أو منطق، كما أنها ليست أخبارا تقريرية يغلب عليها طابع السرد المباشر ولاشك أن ترتيب الأحداث وصياغتها وفق بناء ما يعني أنها مرتبطة بالزمان والمكان وتتحرك بها الشخصيات، وهذا البناء المتشابك يؤدي إلى تجسيد رؤية أو موقف جديد للفعل البشري.

وكل كاتب يختار الأحداث التي يرى أنها تؤدي الغرض الذي يصبوا إليه وبذلك فإن نوعية الحدث وطبيعته وبنائه وعلاقاته هي التي تسهم في معرفة رؤيته للفعل البشري والوجود الإنساني عامة،^أ وليس بالضرورة أن يكون ارتباط الأحداث ببعضها من خلال البداية والوسط والنهاية*، وهي حلقات مترابطة وإنما قد تكون متنوعة ومتباينة، ولا تكون مباشرة وواضحة فقد تكون متنوعة متباينة** وإن كانت تجري لشخصية أو شخصيات محددة.

2- الشخصية الروائية: تعد الشخصية الروائية ركيزة الروائي الأساسية في شخصية إنسانية بالدرجة الأولى تجسد تجربة فردية خاصة، وتمارس نشاطها في بيئة بشرية معينة، وبالتالي فهي ليست خارقة تتحرى الواقع وتتجاوزها وليست هزيلة تنحط عن الواقع وتنكمش عنه، وإنما مزيج من القوة والضعف ومن الخير والشر.

ولقد قدمت الرواية العربية التقليدية أبطالاً نمطيين، بطل خير ملتزم يبحث عن القيم السامية والحب النبيل وهو شخصية نامية تشغل مساحة كبيرة، وبطل شرير يقف ضد الخير وتحقيقه نتيجة خداعه وفساده، ولا يعد شخصية ذات أهمية فنية، ثم يدخل البطلان في صراع، لينتصر الخير في النهاية وهذه محاولة لمسح حركة البشر في الواقع، حيث يصعب ويستحيل أن يكون ثمة تجمع بشري يخلو من الخير والشر،^ب والحقيقة أنها ركزت فيما بعد على البعد السيكولوجي للشخصيات لا على جاهزيتها النمطية.

وعموما فإن الرواية العربية ارتكزت على «نمطية البطل بشقيه الايجابي والسلبي في الواقع الاشتراكي ونمطية الأسرة، أو الحارة، أو القرية، أو مجموعة الأصدقاء، أو الخصم»^ج، مما يعني أن الشخصية الروائية كانت إنسانا واضحا ونموذجا لطائفة أو فئة، أو يجسد معتقدا واضحا له معالم معروفة، ليصبح مخلوقا معتقدا بتقدم الرواية.

وشخصيات الرواية هم أبطال واقعتها الذين يتقمصون الأدوار ويمثلونها كما في مخيلة الروائي، وكلما وفق في انتقاء شخصياته من غير طرازه هو، أمكن أن يشعرنا بأنهم خلق آخر لهم صور محددة يكشفها لنا الروائي من خلال التعامل معهم ورسم ملامحهم وكشف أسرارهم وتفسير نزعاتهم،^د ولا يتحقق له ذلك إلا إذا رسمها وصورها وهي تتحرك بتلقائية وعفوية، وترسم الشخصية غالبا من خلال أربعة أبعاد أساسية ذات دلالات هامة في فهمها وهي: والبعد المادي، والبعد الاجتماعي، والبعد الإيديولوجي، والبعد النفسي^{هـ} وتتداخل هذه الأبعاد فيما بينها وتترابط.

ولا يقدم لنا الروائي الشخصية بأسلوب واحد، فقد يسير معنا خطوة خطوة في بنائها، وتنوع هذه الأساليب أدى تنوع الشخصيات الروائية، وأهم هذه الأنواع هي:

أ- **الشخصية المسطحة: vi** وتعني الشخصية الثابتة أو البسيطة بحيث نرى جانباً واحداً من جوانبها أو تتصف بصفات واحدة لا تتغير طوال الرواية، وبالتالي لا تأثير للأحداث عليها، وهذه الشخصيات المسطحة لها فائدة كبيرة عند القارئ والكاتب، فالقارئ يتذكرها بسهولة، وأما الكاتب فيقيم بناءها بلمسة فنية واحدة لا تحتاج التقدير والتفسير.

ب- **الشخصية النامية: vii** وهي تلك الشخصية التي تبنى خطوة خطوة، وتكشف للقارئ بالتدرج وتتفاعل مع الأحداث وتتطور بتطورها، وسميت نامية لأنها تنمو وتتغير، ومعيار "فورستر" للشخصية النامية هو «مفاجأتنا بطريقة مقنعة»^{viii}، فإذا لم يحدث فعل المفاجأة بعمل جديد أو بصفة لا نعرفها فهي ثابتة،^{ix} يضاف إلى النوعين السابقين، نوعان آخران وهما: الشخصيات الرئيسية والشخصيات الثانوية، وذلك حسب أهمية الشخصية ودورها في الرواية والحيز الذي تحتله في الفضاء الروائي، وبغض النظر عن نوع الشخصية ودورها في الرواية، فإن الروائي يستقي شخصياته إما من الواقع أو التاريخ أو من نسج خياله.

3- الزمان والمكان: عنصران متلازمان للحدث، ولذلك يرتبط - الحدث - بالظروف والعادات والمبادئ الخاصة ارتباطاً ضرورياً لحيوية الرواية، ولأنه يمثل البطانة النفسية لها ويساعد على فهم وقائعها، وقضية الزمان والمكان في العمل الروائي من أهم القضايا التي شغلت الكتاب في فترة ما بين الحربين، ولم يعد التابع النفسي الذي أَرْضَى حاجات الروائيين في القرن التاسع عشر، يكفي روائي القرن العشرين، لأنهم يرون الحياة في صورة معقدة لم تكن تخطر على بال الرعيل السابق.

ولقد ساعدت العلوم الحديثة على ازدياد اهتمامهم بهذه القضية، حيث وجدوا أن عليهم التفريق بين الزمن النفسي والزمن الآلي المتجانس، وزادت نظريات وكتب العلماء في أبعاد الزمن والمكان من تعقيد القضية في نظر المبدع المثقف الذي ينفعل بالتيارات الفكرية في عصره،^x والزمان والمكان يرسمان في القص الروائي كما ترسم الأحداث والشخصيات، وللخيال دور كبير في صياغتها فنياً حتى تتلاءم وتتوافق وتنسجم مع الأحداث والشخصيات.

ولعل إحساس الكاتب بوطأة الزمن وجبروته هو الذي دفعهم إلى تحطيم أهم خصائصه - التتابع والتسلسل -، ولجأوا إلى أساليب سردية أخرى، كالتذكر والتداعي الحر، وتيار الوعي، وتيار الرواية الشيئية... إلخ وبالتالي فإن الرواية المعاصرة عصفت بالتتابع الزمني وجعلت الأحداث تتوالى دون أي اعتبار لأن يكون الماضي سابقاً للحاضر أو لاحقاً له.

والمكان في الرواية المعاصرة لا يعني أبداً المكان الجغرافي المحدد المحدود الصامت الثابت بل يشمل البيئة بزمانها وشخصيتها وأحداثها وهمومها وعاداتها وقيمها وتطلعاتها، وهو بهذا المعنى ليس ثابتاً أو صامتاً، فهو يؤثر

ويتأثر ويتفاعل مع الشخصيات وأفكارها وطموحاتها، كما يتفاعل مع الكاتب الروائي فهو متحرك حيوي^{xi}، ثم إن نوع المكان يؤثر في الشخصيات وفي طبيعة المواقف والمشكلات والصراع الذي يحدث بينها. وعليه فإن الرواية المعاصرة «لم تحتكم لهذا المكون الحكائي الهام وكل ما كان فيها كما يظهر أنه يتصل من ماضٍ إلى حاضر إلى مستقبل، ويمكن أن يرتد من حاضر إلى ماضٍ، ويمكن أن يتراوح بين الامتداد والارتداد... ولم تعر الحيز المكاني ولا النصي ولا الدلالي اهتماما كبيرا، ولم تعن عناية فائقة بهندسته وجماليته»^{xii}، فإذا كان الزمان يتحول إلى بطل في بعض الروايات*، فإن توأمه المكان** قد يتحول إلى بطل أيضا في مدرسة الرواية المعاصرة.

4- السرد الروائي: ويقصد به قص حدث أو أحداث أو خبر أو أخبار سواء كان ذلك من صميم الحقيقة أم من ابتكار الخيال^{xiii}، ولكل رواية سرد خاص بما تبرز من خلاله ويتحدد بناؤها، ويقوم السرد بربط الأحداث ترابطا يجعل بعضها مرتبطا بالآخر بسلاسة ووضوح، بحيث يجعل الحبكة متماسكة وقد يكون الانتقال من حدث إلى آخر غير سلس لشخصيات متباينة أو أحداث مختلفة ومنفصلة بعضها عن بعض^{xiv}، وهذا الترتيب يسمى بنسق سرد الأحداث وغالبا ما يأتي وفق أساليب سردية مختلفة أهمها:

أ- نسق التناوب: ويقوم على سرد أجزاء من رواية ثم أجزاء من رواية أخرى ويقسم إلى قسمين:
* - سرد أحداث مختلفة من مكانين مختلفين أو زمنين مختلفين لرواية واحدة من قبل راوٍ واحد أو من أكثر من راوٍ ليسرد الرواية بالتناوب ويخلق سرد متعدد الأحداث، ويطلق على هذه العملية "المونتاج"، وهو إما مونتاج مكاني يبقى الشخص فيه ثابتا في مكان واحد ويتحرك وعيه عبر الزمان، وإما مونتاج زمني زمانه ثابت والمكان متغير.
** - سرد أحداث مختلفة من روايتين مختلفتين من قبل راوٍ واحد.

ب- النسق الدائري: تبدأ الأحداث من نقطة ثم تعود في النهاية إلى نقطة البداية، وقد تبدأ هذه الأحداث من النهاية لتعود إلى البداية، فيكون بناء الدائرة معكوسا،^{xv} وهناك أنساق سردية أخرى إما بحسب الزمن أو طبيعة الراوي، وهي:

ج- نسق التذكير:* تعود الشخصية الروائية من خلال هذا النسق إلى الوراثة لتذكر أحداثا ومواقفا جرت معها قبل زمن معين، هذه العودة تجسد الحركة أو سير الأحداث المباشرة لتضيئها مما يجعلها أكثر حيوية وخصوبة.

د- نسق الارتداد (الاسترجاع):* يبدأ السرد الروائي بتقديم حدث أو أحداث معينة، ويتوقف عند نقطة معينة ليعود بنا إلى الوراثة، وهذه العودة تتم من خلال تقنية الاسترجاع (الارتداد) التي تتطور لتصل بنا مرة أخرى إلى النقطة التي توقف السرد عندها أي إلى الحدث المباشر.

هـ- نسق التداعي:* يرسم السرد ما يتداعى إلى ذهن الشخصية من أفكار وصور وخواطر وهواجس، وهي تقنية حديثة وظفها الروائيون بالاستفادة من علم النفس وتجارب علمائه.

و- نسق الحلم: نتعرف من خلال هذا النسق على أحلام الشخصية الروائية ولقد لجأ الروائيون إلى هذه التقنية لأنها تحقق لهم أهدافا مثل: الهروب من الواقع القاسي، وأحيانا لرسم الشخصيات من الداخل.

ز- نسق تيار الوعي: ويسمى الوعي الباطن، ويوظف هذا النسق عندما تنفعل الشخصية الروائية بما أمامها انفعالات لا تستطيع أن تفصح عنها فيقولها عنها الروائي.

ح- نسق القطع المكاني*: يستمد هذا النسق من فن السينما، حيث يتم تجسيد الزمان والتحرك عبر المكان وهذا النسق يحقق أهدافا فكرية تتمثل في تصوير التفاوت بين الممكنة،^{xvi} وعليه نستطيع القول إن الأنساق أو الأساليب السردية لها وظيفة شاملة عامة تتمثل في تحقيق التوازن للبناء الروائي، وتتنوع هذه الأساليب من رواية إلى أخرى.

5- لغة الرواية: لغة الرواية لغة نثرية تتميز بقدرتها على تصوير العالم الروائي بأحداثه وشخصياته وزمانه ومكانه... الخ، ولهذا لا بد للروائي من دراسة اللغة وطاقت الألفاظ والجمل والصور وقدرات الخيال على الابتكار وإيجاد العلاقات الجديدة بين مفردات الواقع، فالكلمة في الرواية يجب أن تثير اهتمام القارئ وخياله. ويختلف روايي عن آخر في مدى استعمال العامية في الحوار، ولا يختلفون في أنهم جميعا يلتزمون بالفصحى في السرد^{xvii}، ومع تطور الأدب في السنوات الأخيرة فصارت لغتها نثرية شعرية كثيفة موحية رامزة.
